نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم

الطبعـة الأولـى
١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م

الطبعـة الثـانية
١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق
أسسها محمد المعلّم عام ١٩٦٨

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٢٩٣٣٣
فـاكـس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكـس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف . ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣
فـاكـس : ٨٦٧٥٥٥ ـ تلكـس : SHOROK 20175 LE

محمد الغزالي

نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم

دار الشروق

مقـدمـة

هذه دراسة جديدة للقرآن الكريم ، سبق أن قدمت نماذج منها فى بعض ماكتبت .

وقد لازمنى شعور بالقصور وأنا أمضى فيها ، فشأن القرآن أكبر من أن يتعرض له مثلى ، ولكنى حرصت على أن أزداد فقها فى القرآن وتدبُّرا لمعانيه .

وقلت : قد أرتاد طريقا لم أُسبق إليه أفتتح به بابا من أبواب الخير ، والقرآن لاتنقضى عجائبه ، ولن نبلغ مهما بذلنا مداه ! !

والهدف الذى سعيت إليه أن أقدم تفسيرا موضوعيا لكل سورة من الكتاب العزيز .

والتفسير الموضوعى غير التفسير الموضعى : الأخير يتناول الآية أو الطائفة من الآيات فيشرح الألفاظ والتراكيب والأحكام !

أما الأول فهو يتناول السورة كلها يحاول رسم « صورة شمسيَّة » لها تتناول أولها وآخرها ، وتتعرف على الروابط الخفيَّة التى تَشُدُّها كلها ، وتجعل أولها تمهيدا لآخرها ، وآخرها تصديقا لأولها .

لقد عنيت عناية شديدة بوحدة الموضوع فى السورة ، وإن كثرت قضاياها ، وتأسّيت فى ذلك بالشيخ محمد عبد الله دراز عندما تناول سورة البقرة ـ وهى أطول سوُرة فى القرآن الكريم ـ فجعل منها باقة واحدة مُلوَّنة نضيدة ، يعرف ذلك من قرأ كتابه « النبأ العظيم » وهو أول تفسير موضوعى لسورة كاملة ، فيما أعتقد . .

وعلماء القـرآن أجهزة اسـتقبال لما يؤتيهم الله من فهم فيه ، فالفضل أولا وآخرا لمن أسدى تبارك اسمه ! .

وقد شعرت ـ على ضوء ما أحسست من نفسى ـ أن المسلمين بحاجة إلى هذا اللون من التفسير ! كيف ؟ لقد صحبتُ القرآن من طفولتى ، وحفظته فى سن العاشرة ، ومازلت أقرؤه وأنا فى العقد الثامن من العمر . .

بدا لى أن ما أَقْبِس من معانيه قليل ، وأن وَعيِى لايتجاوز المعانى القريبة والجُمَل المردَّدة ، فقلت : إنى ماقضيت حق التدبُّر فيه كما أمر منزله العظيم !

يجب أن أغوص فى أعماق الآية لأدرك رباطها بما قبلها ومابعدها ، وأن أتعرف على السورة كلها متماسكة متساوقة . . .

ثم شعرت بأن همتى دون هذه المهمة !! وكدت أتوقف! ثم قلت : لأن أقطع شوطا أو شوطين فى هذا الطريق أفضل من أن استسلم للعجز فى المراحل الأولى .

ولكن الله أعان ووفق فقطعت الطريق وبلغت نهايته .

والقرآن الكريم خلاصة ما أنزل الله من وحى فى القرون الأولى، وقد توافر له من الحفظ ماضمن له الخلود، ولايوجد فى الأولين والآخرين كتاب وعتْه القرائح وسجلته الصحائف وحفَّه التواتر حرفا حرفا إلا هذا القرآن الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه .

فلو سأل سائل : أين وحى الله فى هذا العصر؟ لماكانت الإشارة إلا إلى القرآن ، ولا الإشادة إلا بكلماته التى غلبت الفناء، فيها وحدها الحق المعصوم والهدى المستقيم . .

وأكرر أننى مستكشف قاصر، وأن الوادى الذى أستقى منه يسيل على قدْرى أنا ـ وهو محدود ـ ولكنه يحُثُّ الخطى إلى ماهو أبعد، ويحدو أولى الألباب إلى الشأو الأعلى فى خدمة القرآن، وإماطة اللثام عن روائعه وبدائعه . . .

إننى أختار من الآيات مايبرز ملامح الصورة، وأترك غيرها للقارئ يضمها إلى السياق المشابه، وذلك حتى لايطول العرض ويتشتت، والإيجاز مقصود لدىّ . . . .

وأنبه إلى أن هذا التفسير الموضوعى لايغنى أبدا عن التفسير الموضعى بل هو تكميل له وجهد ينضم إلى جهوده المقدورة . . .

وهناك معنى آخر للتفسير الموضوعى لم أتعرض له! وهو تتبُّع المعنى الواحد فى طول القرآن وعرضه وحشده فى سياق قريب، ومعالجة كثير من القضايا على هذا الأساس . . .

وقد قدمت نماذج لهذا التفسير فى كتابى « المحاور الخمسة للقرآن الكريم» و«نظرات فى القرآن » .

ولاريب أن الدراسات القرآنية تحتاج إلى هذا النسق الآخر ، بل يرى البعض أن المستقبل لها! وعلى كل حال فالقرآن الكريم دستور الإسلام ومعجزته الباقية، والمورد الذى نتردد عليه فنحسّ الحاجة إليه آخر الدهر.

والحمد الله الذى أنزل على عبده الكتاب وجعله هدى لأولى الألباب، وحصَّنه من الخطأ ومحضه للصواب . . . .

محمد الغزالى

سورة الفاتحة

باسم الله خير الأسماء . باسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء . .

بسم الله الرحمن الرحيم .

سورة الحمد من قصار السور ولكنها أم الكتاب ، وأعظم سوره .

تضمنتْ خلاصة وجيزة لعقائد الإسلام ، وعهدًا وثيقًا بين الناس وربهم يحقق رسالتهم فى الوجود ، ورجاء في الله أن يهدى الطريق ، ويمنح التوفيق ، وينعم بالرضا . . .

ولننظر فى الآية الأولى « الحمد لله رب العالمين » .

الحمد لفظ تلتقى فيه معان ثلاثة ، فهو ثناء يكشف عن أمجاد الذات العليا من جلال وجمال وكمال ، وهو مديح على ما ننال من عطاء ونعماء ، جاد بها ولىّ النعم ، وهو شكر يقابل الخير النازل والفضل المُسْدَى .

وعندما نصبح فنقول مثلاً « الحمد لله الذى أحيانا من مماتنا وإليه النشور » فنحن نثنى ونمدح ونشكر .

« ورب العالمين » سيد العوالم كلها من العرش إلى الفرش ، من السماء إلى الأرض ، من الحيوان إلى النبات ، من الملائكة إلى البشر .

والعالم ما عدا الله من خلق ، وما عدا الله مَرْبوبٌ له فقير إليه . .

نعم كل ماعدا الله عبد له ، صنيعة نعمته ، « فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين ، وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » .

« الرحمن الرحيم » نحن فى رحمته نعيش ، والرحمة والعلم يسعان كل شىء ، ولولا أن الله غفور رحيم لفتكت بنا معاصينا وقضى علينا جحودنا وطغياننا .

« مالك يوم الدين » المقصود بالدين الجزاء ، وهو بداية العالم الآخر ، والعالم الآخر هو المقابل لعالمنا المعاصر .

والحضارة المادية المسيطرة على الحياة الآن قلّما تذكره ، بل لعلها ترى من الهزل ذكره .

وهى تتعمد نسيانه فى ميادين التربية والتشريع والسياسة الدولية والمحلية مع أنه الحقيقة العظمى ، الأجدر بالرعاية والحساب . .

« إياك نعبد و إياك نستعين » نعبدك وحدك يا الله ، ونستعين بك لابغيرك ، فكل غيرٍ محتاج إليك ، كما جاء فى السنة « اللهم أعنّى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » « إذا سألت فاسأل الله و إذا استعنت فاستعن بالله » .

«اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم . . » الخط المستقيم أقصر طريق بين نقطتين ، ولذلك لايتعدد ، ومن استقام اهتدى إلى الله « إن ربى على صراط مستقيم » .

ودين الله واحد ، بلغه الأنبياء على اختلاف الأعصار والأمصار ، أساسه إله واحد ، له الولاء ، وله الثناء ، يفتقر إليه أهل الأرض وأهل السماء .

ولعل هذه النقطة مثار الخلاف بين أتباع الأديان المعاصرة ، فالمسلمون يوقنون بأن ماعدا الله عبد له خاضع لحكمه عانٍ لأمره فى الدنيا والآخرة .

ويستحيل أن يتجاوز هذه الحقيقة بشر أو ملك . . فمن لزمها نجا ومن زاغ عنها هلك . .

وكل من أحسن طاعة الله ورسله بلغ هذه الغاية « ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » أما من أشرك بالله شيئا ، أو رفض الانقياد لأمره ، فهو بين الضلال والغضب لا أمل له ولا خير فيه . . . « غير المغضوب عليهم ولا الضالين » على الإنسان أن يكون صائب الفكر صادق النظر ، فإذا اهتدى إلى الحق فعليه أن يعمل به ويتواضع لربه ، ويرفق بعباده . .

وهذه السورة فرض الله قراءتها فى جميع الصلوات ، لتكون مناجاة متجدِّدة مقبولة بين الناس ورب الناس ، فهى حقائق علمية ،وهى فى الوقت نفسه ، ضراعة عبد ينشد رضا مولاه . . .

وقد جاء فى السنة « قسمتُ الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى ماسأل فإذا قال : «الحمد لله رب العالمين » قال الله : حمدنى عبدى ! و إذا قال « الرحمن الرحيم » قال الله أثنى علىّ عبدى . ! فإذا قال : « مالك يوم الدين » قال الله : مجّدنى عبدى ، أو فوّض إلى عبدى !

فإذا قال : إياك نعبد و إياك نستعين » قال الله : هذا بينى وبين عبدى ، ولعبدى ماسأل . فإذا قال : « اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » قال الله : هذا لعبدى ولعبدى ماسأل . . . ! !

ونحن نكرر الدعاء لأنفسنا ، كما نكرر غسل أعضائنا لأن أسباب هذا التكرار قائمة ، فالجسم الإنسانى لايكفى فى تطهيره أن يغسل مرة أو مرتين ، لابد من تكرار الغسل مدى الحياة ! !

والطبع البشرى لا تصقله دعوة أو دعوتان لابد من تكرار الوقوف بين يدى الله لأن رعونات النفس ووساوس الشيطان لاتنتهى ، فلابد من تكرار الدعاء ، واستدامة التضرع « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » .

وهكذا فى سطور قلائل تم تصوير العلاقة الوحيدة الممكنة بين الناس ورب الناس .

الاعتراف به ، والثناء عليه ، والاستعداد للقائه والتعهُّد بعبوديته ثم الرجاء إليه أن يجعلنا كما يحب . . .

سورة البقرة

اتجهت الجهود بعد الهجرة إلى تكوين المجتمع الإسلامى الأول فى المدينة المنورة ، لقد نجح المسلمون أفرادا فى مقاومة فتن الوثنية ، وهاهم أولاء قد خلصوا بدينهم ، ووجدوا دارا تجمع أمتهم ، وتقيم دولتهم . .

لكنهم فوجئوا بعداوة من نوع آخر ، عداوة اليهود الذين حسبوا الدين حكرا على جنسهم ، فتجهموا للمنافسين الجدد ، وشرعوا يستعدون لمقاومتهم ، ويتآمرون سرا وعلنا على الكيد لهم . .

والقبائل اليهودية التى استوطنت البقاع الخصبة فى الحجاز ، بدأت حياتها فارّةً بعقائدها من بطش الرومان ، وقد عاشت بين العرب الأميين مترفعة عليهم ، فما حاولت محاربة الأصنام ، ولا أنشأت دعوة إلى الله ، ولا عرضت تعاليم السماء لتغنى عن تعاليم الأرض . .

كلا ، لقد نأت بنفسها ، واستراحت إلى مواريثها ، وظنت أن الدين امتياز لها ، ماينبغى أن يشركهم فيه أحد ! !

فهل بقيت على هذا الشعور عندما ظهر الإسلام ؟ لا ، لقد رفضته ، وقلّبت له الأمور . . .

وحاول النبىّ الخاتم أن يستلين جانبهم ، ويتعاون على الخير معهم ، بيد أن حقدهم غلب ، وبدأ شرهم ينمو ، فكان المسلمون فى مهجرهم الذى ظفروا به يبنون بيد ، ويقاومون بأخرى ! يؤسسون مجتمعهم وفق إشارات الوحى ، ويدفعون عنه أعداء لايخفى لهم ضغن ! !

فى هذا الجو نزلت سورة البقرة أطول سور القرآن الكريم وأحفلها بالتعاليم المنوّعة . . .

وبطريق التلميح أشارت إلى زيف مابأيدى اليهود « ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين »[1] كأن الكتب الأخرى موضع ريبة ، وكأن مافيها من خليط لايصنع تقوى ، ولا يزكّى سيرة ! !

وخلالُ المتقين التى أحصتها سورة البقرة كثيرة ، فقد تكررت مادة التقوى خلال السورة بضعا وثلاثين مرة ، لاتشبهها فى ذلك سورة أخرى ، والتقوى هى الصفة الجامعة التى طُلبت من سائر الأمم فى شتى الرسالات « ولله مافى السموات وما فى الأرض ، ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم ، أن اتقوا الله . . »[2] .

---

(١) البقرة : ٢

(٢) النساء : ١٣١

وتمتاز سورة البقرة بأنها تحدثت عن أركان الإسلام الخمسة «يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم»[١] ، « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى ، وقوموا لله قانتين»[٢]، « يأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لابيع فيه ولاخلة ولاشفاعة»[٣]، « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم . . »[٤]، «وأتموا الحج والعمرة لله . . »[٥] .

وقد ظلت السورة مفتوحة يضم إليها النبى الكريم ماشاء الله أن يضيفه إليها من وحى يتصل بموضوعها .

ومعروف أن آخر آية نزلت من القرآن كله هى قوله تعالى : « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ماكسبت وهم لايظلمون »[٦] وقد أمر النبى عليه الصلاة والسلام بضمها إلى الآيات التى تتحدث عن الربا فى خواتيم سورة البقرة . . .

وننظر إلى الصفحات الأولى من السورة ، فنجدها وصفت الأتقياء فى ثلاث آيات ، ووصفت الكافرين فى آيتين ، ووصفت المنافقين فى ثلاث عشرة آية ! وذلك يدل على استطارة شرهم وخطورة أثرهم على الجماعة كلها . .

وبعد دعوة عامة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر ، وحديث وجيز عن إعجاز القرآن الكريم ، وصدق صاحبه ، وخسار عدوه ، عاد الحديث إلى صنوف الناس بإزاء الرسالة ، وتباين مواقفهم بين مؤمن وكافر ، أو بين ناقض للعهد وموفٍ . .

أكان رب العالمين جديرا بهذا الموقف الخسيس ؟ هل جزاء النعمة المسداة ، نعمة الإيجاد والإمداد أن نكفر صاحبها ؟ وبهذا الكنود ! ! « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون»[٧] .

وكان طبيعيا بعدئذ ذكرُ بدء الخلق ، وتكليف البشر ، والصراع الدائم بين آدم وبنيه ، وإبليس وذريته ! إن هذا الصراع ظهر فى صورة عداوة مُرّة بين خاتم الدعاة وبنى إسرائيل ، الذين آثروا أن يكونوا جند إبليس فى معركته الخالدة ضد الحق . .

كان لابد ـ وسورة البقرة أول مانزل بالمدينة ـ أن تتصدّى السورة لبنى إسرائيل ، مفندة موقفهم من الرسالة الخاتمة ، ومسالكهم المعيبة فى القديم والحديث ! !

---

(١) البقرة : ٢١ (٢) البقرة : ٢٣٨ (٣) البقرة : ٢٥٤
(٤) البقرة : ١٨٣ (٥) البقرة : ١٩٦ (٦) البقرة : ٢٨١
(٧) البقرة : ٢٨

وبدأ ذلك من قوله تعالى : « يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ، وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم ، وإيّاى فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ، ولا تكونوا أول كافر به . . . »[1] .

وتصديق القرآن لما مع اليهود إنما هو تصديق على الإجمال ، فأهل الكتاب ليسوا كعبدة الأوثان فى الكفر بالله وإنكار الوحى الذى أنزل على المرسلين ! إن القرآن يصدقهم فيما يذكرون من إيمان بالله ، وإثبات للوحى ، وتكليف للناس ، وحساب على الأعمال ! لكنه لايصدقهم حين يذكرون أن الله مثلا ندم على إغراق الأرض بالطوفان ، ثم ندم على ماصنع واحتاج إلى من يذكره حتى لايفعلها مرة أخرى !

إنه لايصدق العهد القديم حين يذكر أن الله نزل يتمشى على الأرض ثم مال إلى نبيه إبراهيم حيث تناول معه الغداء . . ! ! ولايصدقه حين يذكر أن الله صارع يعقوب ليلا طويلا ، ثم لم يفلته حتى منحه لقب إسرائيل !

إن تصديقه لما مع بنى إسرائيل هو ـ على الإجمال لا على التفصيل ـ والمجمل الذى سلمه لهم ، أو وافقهم عليه إنما ذكره ليحاسبهم على ضوئه حسابا عادلا .

وقد أحصت سورة البقرة أكثر من ست عشرة مرة شئونا وقضايا عرضت للقوم فى تاريخهم الطويل ، وذكرت لديهم فى التوراة ، ومع ذلك لم يكونوا عند حسن الظن فى الاعتبار بها وشكر الله عليها .

ويبدأ هذا الإحصاء من قوله تعالى : « وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب »[2] هل قدّروا نعمة هذه النجاة ؟ ثم عاقب الله عدوهم فأغرقهم أمام عيونهم ، فهل شعروا بعدالة هذا القصاص ، وحمدوا ربهم على هلاك الظلمة ؟

واتصل السرد القرآنى فى صفحات طوال يذكّر ويتساءل ! فهل استيقظ الضمير اليهودى بعد هذه القائمة من الحساب الطويل أم بقى أكفر من عبدة الأوثان بنبىّ القرآن ؟

هذا ماسجلته سورة البقرة من تاريخ القوم لتخلص منه إلى شأن أهم هو مانسميه بالوحدة الدينية كما صورها القرآن الكريم فى هذه السورة .

* * *

(١) البقرة : ٤٠ ، ٤١ (٢) البقرة : ٤٩

فى وجه تعصب دينى ضيق ينشد الإسلام للناس كافة وحدة دينية سمحة ، تقوم على الفطرة السليمة والمنطق الواعى ! إن اليهود والنصارى يرون الحق حكرا عليهم وحدهم ، وأن النجاة لن تكون إلا لهم ! .

لماذا يرسل هذا الحكم المتحيز ؟ « وقالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ! تلك أمانيّهم ، قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين»[1] . هناك ناس آخرون حسنت معرفتهم لله ، وأسلموا له وجوههم ، وأخلصوا نياتهم ، وأصلحوا أعمالهم ، لماذا يُهدر جهدهم ؟ « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »[2] .

على هذا الأساس طلب القرآن من أهل الكتاب أن يؤمنوا بالله ورسله جميعا ، وأن ينخلعوا من أنانيتهم التى تزين لكل طائفة أن الحق لديها وحدها « وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا ، قل : بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين »[3] . ثم طلب منهم توسيع دائرة الإيمان حتى تشمل كل نبىٍّ أرسله الله لهداية الناس ، فلا مساغ لاستثناء أحد « قولوا : آمنا بالله وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل ، وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لانفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون »[4] .

هذه أصول الوحدة الدينية التى شرحتها سورة البقرة ، وعرضتها على اليهود والنصارى ، كى يدخلوا فيها ، ويتآخوا مع المسلمين فى ظلالها ، وقبيل هذا التفصيل بيّن القرآن الكريم أن الإسلام المعروض ليس شيئا جديدا ، إنه دين المرسلين الأوائل . .

يفخر اليهود بأنهم أبناء يعقوب الذى لقب بعد بإسرائيل ، والذى أقيمت دولة فى هذا العصر باسمه ! ماذا كان يعقوب ؟ كان رجلا حسن الصلة بالله ، يعرفه معرفة وثيقة ، ويستسلم لقضائه وقدره ، ويدعو أولاده للإيمان به ، ويستوثق قبل مماته من أنهم لن يفرطوا فى هذا الإيمان مثقال ذرة . . « أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت ، إذ قال لبنيه : ماتعبدون من بعدى ؟ قالوا : نعبد إلـهك وإلـه آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلـها واحدا ونحن له مسلمون »[5] .

إن هذا الإسلام هو العلاقة العقلية الوحيدة بين الكائنات وربها ، بين الناس وخالقهم ! أليس من حق الموجد الأعلى أن ترنو إليه الموجودات عابدة خاشعة ؟ إذا لم يكن الإسلام لله دينا فهل التمرد عليه هو الدين ؟ هل تجاوُز حقه هو الدين ؟ هل الحكم بغير ما أمر هو الدين ؟

---

(١) البقرة : ١١١ (٢) البقرة : ١١٢ (٣) البقرة : ١٣٥

(٤) البقرة : ١٣٦ (٥) البقرة : ١٣٣

إن محمدا ردّ الأشياء إلى أصولها ، ومهّد لله سبيلا لاسبيل غيرها ، ولذلك جاء فى هذه السورة «فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما هم فى شقاق ، فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم »[1].

ونلحظ فى هذه الآية أدبين كريمين : الأول أنه طلب الإيمان بمثل إيماننا ، ولم يقل بإيماننا نفسه تلطفا معهم وتقديرا لأشخاصهم ، كأنه يمنحهم حرية التصرف ، وإلا فالإيمان واحد !

أما الأدب الثانى فإن تكذيبهم لم يُجعل سببا للهجوم عليهم ، بل تُركوا وشأنهم ! فإذا جاش الشر بأنفسهم وبدأوا العدوان فإن الله سيحمينا وهو حسبنا . .

تلك معالم الوحدة الجامعة كما رسمتها هذه السورة ، وبقى أن نزيل لبسا قد يخالط بعض الأفهام : مامعنى أن الرسل جميعا مسلمون ، والمعروف أن الإسلام هو الدين الذى طلع به محمد على الناس ؟ .

الحقيقة المؤكدة أن الدين منذ الأزل واحد ، إيمان بالله ، وإصلاح للعمل ، وهما معنى الإسلام!

المعرفة النظرية لاتكفى ، فلابد مع المعرفة أن نقول لربنا : « سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا وإليك المصير »[2] . ومعرفة إبليس أن الله واحد خلق الكل ، لاتغنيه شيئا ، لابد أن يُضمّ إلى هذه المعرفة استسلام لأمر الله ، وسعى إلى استرضائه ، ومادام قد أبى ذلك فقد طرد من رحمة الله .

وقد جاء المرسلون قاطبة يعلنون معرفتهم بالله على الوجه الصحيح ، كما يعلنون طاعتهم لله فى كل ماكلف العباد به !!

هكذا فعل نوح وإبراهيم ، وهكذا فعل موسى وعيسى ومحمد ، ولانسرد هنا الآيات التى أعلنوا فيها إسلامهم ، فالأمر يطول . . . الجميع كانوا دعاة إلى الإسلام ، وإن تفاوتت التشريعات الفرعية على اختلاف العصور .

إن الإنسان فى صغره قد يسمى فلانا ، فإذا كبرت سنه لم يتغير اسمه ، وإن اتسعت الدائرة التى تتمّ فيها تصرفاته ، وليس من العقل أن نتصور دائرة التدين فى هذا العصر تنطبق على دائرة التدين فى عصر نوح ، إن مركز الدائرة واحد هنا وهناك ، ولكن محيطها قد يتسع باتساع العمران ، والشبكة الكهربائية قد تكون ميلا فى بعض القرى ، ولكنها تكون أميالا طويلة فى بعض العواصم ، والتيار واحد . .

---

(١) البقرة : ١٣٧ (٢) البقرة : ٢٨٥

وقد ظهر محمد بعد تجارب هائلة خاضها موسى وعيسى مع الناس ، فهل يستكثر على الدين الخاتم أن يصحح أخطاء جدَّتْ ، وأن يقيم طرقا اعوجت ، وأن يمحو بدعا حدثت ، وأن يسرد فى كتاب جادّ مفصل الحقائق التى ذهل عنها هؤلاء وأولئك . . ؟

كانت بعثة محمد ضرورة ماسة لتصويب خطى الإنسانية التى شردت ، وكانت لفتًا لأنظار أهل الكتاب خاصة إلى المآسى التى ألحقوها بالناس . .

بالنسبة إلى النصارى كان لابد من توكيد وحدانية الله ، وإظهار عيسى عبدًا كسائر المخلوقات ، مع الإشارة إلى أنه وحَوارِيِّيه دعاة إلى الإسلام الحق . وبالنسبة إلى اليهود كان لابد من توبيخهم على كبرهم ، واستخلاص الوحى السليم من براثنهم ، وإظهار أن الله ليست له بجنس مَّا صلة خاصة .

إن الصالحين الأوائل من أتباع موسى وعيسى ينضمون إلى أتباع محمد أو ينضم إليهم أتباع محمد فى هذا الحكم الجامع « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الأخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون »[1] .

أما بقايا أهل الكتاب التى تعيش الآن لاتدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، وتهرع وراء شهوات الدنيا مسابقة عبدة الأوثان فلن يقبل لهم زعم . . فكيف إذا انضم إلى عوجهم البادى حقد رهيب على الموحدين وإصرار على هدم مساجدهم ، وفض مجامعهم « ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ، وسعى فى خرابها ، أولئك ماكان لهم أن يدخلوها إلا خائفين ، لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم »[2] .

إن السورة التى نزلت بعد الهجرة مباشرة ، والتى عاصرت بناء الجماعة الإسلامية على دعائمه العتيدة ، أرست الأصول التى تقوم عليها العلاقات بين أتباع الأديان المختلفة ، فى الوقت الذى تنادى فيه بوحدة الدين عودة إلى تعاليم جميع المرسلين .

* * *

(١) البقرة : ٦٢

(٢) البقرة : ١١٤

استقبل اليهود الإسلام أول ماظهر بإنكار ومقت ، فقد كانوا يحسبون أن الدين حكر عليهم ، وأنه لن يتجاوزهم إلى جنس آخر ، فلما تمت الهجرة ، واقترب الإسلام من مستوطناتهم ، قرروا الاحتيال فى حربه والمكر بأتباعه .

وعرض عليهم النبى صلى الله عليه وسلم صحيفة تنظم العلاقات بين المسلمين وغيرهم ، على أسس من المهادنة والتناصر ، فقبلوا الصحيفة على مضض ، ومضوا فى طريقهم يسخرون من الدين الجديد ، ويؤلبون عليه ، ويطعنون فيه . . .

وتنزّل الوحى فى صفحات متصلة يوبخ اليهود على مواقفهم ويقرعهم على مابدر منهم فى ماضيهم الطويل ، ولم يُجْد ذلك فتيلا فى كسر غرورهم ، وإلانة قلوبهم ! ! فرأيُهم فى أنفسهم أنهم وحدهم أهل الوحى ، وأنه لايجوز لله أن يختار نبيا بعيدا عنهم .

وقد شكّك القرآن الكريم فى دعاواهم كلها ، إذا كنتم مؤمنين بما لديكم فلم تنكرون مايصدقه؟ « وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا : نؤمن بما أنزل علينا ، ويكفرون بماوراءه وهوالحق مصدقا لما معهم ، قل : فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين »[1]؟

ومضى القرآن يثبت عليهم أنهم كاذبون فى دعوى الإيمان ، وإلا ماقتلوا الأنبياء ، ونقضوا المواثيق ، واقترفوا المعاصى ، أهذا إيمان ؟ « بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين »[2] .

وأحصت عليهم سورة البقرة بضعة عشر تذكيرا بما كان منهم لعلهم يَرْعَوُون ! وهيهات .

لكن هذا التذكير إذا لم يثن اليهود عن عوجهم ، فهو تعليم للأمة الإسلامية أن تستقيم وتستفيد ، وأن تتجنب مسالك المغضوب عليهم ، لقد قال لليهود من قبل : «وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم . .»[3] وهاهو ذا يقول للمسلمين : « فاذكرونى أذكركم ، واشكروا لى ولاتكفرون ، يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة . .»[4] .

وإذا كان اليهود قد حرصوا على الدين شكلا لاموضوعا ، وتشبثوا بالقشور ، ونسوا اللباب ، فاستمسِكوا أنتم أيها المسلمون بالحق الأصيل وأركانه المنشودة « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر . .»[5] إلى آخر الأركان الستة التى تشرح حقيقة البر ، وترسى دعائم التقوى . . .

---

(١) البقرة : ٩١
(٢) البقرة : ٩٣
(٣) البقرة : ٤٠
(٤) البقرة : ١٥٢ ، ١٥٣
(٥) البقرة : ١٧٧

وتستطرد السورة فى بناء المجتمع الجديد ، فتشرح كما ذكرنا أركان الإسلام الخمسة ، ثم تفيض فى حديث عن الأسرة المسلمة ، شارحة أحكاما كثيرة فى بنائها وقيامها وحياطتها .

ولا تنسى وهى تتدفق فى هذا الشرح أن تشير إلى ما سلف من اليهود ، وكيف تكاثرت بينهم آيات الله فأهدروها ، فحقت عليهم كلمة ربك « سل بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ، ومن يبدل نعمة الله من بعد ماجاءته فإن الله شديد العقاب»[1] .

أهذا التقرير من قبيل المثل المعروف « إياك أعنى واسمعى ياجارة » ؟

إن هذه السورة تحدثت عن حماية المجتمع الكبير بالجهاد ، وعن حماية المجتمع الصغير ـ وهو الأسرة ـ بفنون من الأحكام التى تصونها ، ولكننا نحن المسلمين تهاونا فى الأمرين معا ، فلنؤخر مؤقتا الكلا م عن جو الأسرة الإسلامية ، ولنتناول بإيجاز قضية القتال ، وكيف شرحها القرآن الكريم شرحا ينفى عن الجهاد المشروع كل شائبة للعدوان . .

إننا معشر المسلمين لانحب الحروب ، ولانعشق مافيها من دمار وخسار ، إننا نؤثر العافية ، والاستقرار بين الأهل والأحبة ، وقد أقر الإسلام مؤقتا هذه المشاعر « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وأنتم لاتعلمون »[2] .

لا بأس بالسلام مع صون الحقوق واحترام العقيدة ، أما إذا كان السلام يعنى الاستسلام وقبول الدنية فلا مرحبا به ! !

وفى شرح القرآن لاستباحة الشهر الحرام ترى هذه الموازنة ، « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه . . . قل قتال فيه كبير »[3] أى لايجوز ، لكن ، ما العمل إذا أقررتم فيه العدوان ، ومطاردة الآمنين ، وصادرتم حق العبادة الصحيحة ؟ ألا يجب رد العدوان وحماية الحقائق والحقوق « . . . وصدٌّ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام ، وإخراج أهله منه أكبر عند الله . . »[4] والنتيجة «والفتنة أكبر من القتل »[5] فليكن القتال دفاعا عن الحرمات والعقائد .

وما العمل إذا كنا نتعامل مع قوم لايرضون عنا حتى ندع مالدينا وندخل فى ملّتهم ؟؟ إن القتال هنا لابد منه ، ولن نُسأل بداهة عنه ، المسئول عنه غيرنا . .

بعد سرد هذه المقدمات نفهم معنى قوله تعالى فى سورة البقرة : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولاتعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين »[6] هذا حكم خالد إلى قيام الساعة ، وكل ماورد فى القرآن الكريم من أول المصحف إلى آخره يتفق مع هذا الحكم ، وقد وهلَ قوم أن سورة براءة

---

(١) البقرة : ٢١١ (٢) البقرة : ٢١٦ (٣، ٤، ٥) البقرة : ٢١٧

(٦) البقرة : ١٩٠

تضمنت حكما مناقضا لما جاء هنا ، وهذا خطأ مؤسف ، فالأمر بالقتال فى سورة براءة لم يكن لقوم منصفين أو محايدين أو معتدلين ، بل كان لقوم فى أفئدتهم لَدد ، بسطوا أيديهم إلينا بالأذى ، ومن ثم يقول القرآن فى وصفهم : « إنهم ساء ماكانوا يعملون . لايرقُبون فى مؤمن إلاًّ ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون»[1] .

ثم يحرص على مواجهتهم بالقتال العادل الحق « ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهمّوا بإخراج الرسول ، وهم بدؤوكم أول مرة ؟ أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين » !![2] .

فكيف يفهم أحد أن القتال هنا لقوم غير معتدين ؟ وأن الحكم هنا نسخ الحكم الوارد فى سورة البقرة بأنه لاقتال إلا للمعتدين ، إن هذا فهْم سوء ، وقول منكر بنسخ أحكام خالدة ، وفتح لباب التهم المؤذية ، ونحن الملومون ! .

ونشير هنا إلى أن القرآن الكريم يصف القتال الصحيح المقبول بأنه فى سبيل الله ، ليس فى سبيل مجد شخصى ولا منفعة خاصة ، ولا قومية باغية تزعم مثلا أن ألمانيا أو انجلترا فوق الجميع . .

والقتال الذى ساد العالم فى الأعصار الأخيرة كان لنهب ثروات المستضعفين ، واستعمار أرضهم لحساب السلاح الأقوى والطرف الأعتى ، إنه ليس قتالا فى سبيل الله أبدا ، إنه قتال فى سبيل الشيطان . .

إن القتال فى سبيل الله يكون لاستبقاء عبادة الله ، ورفض عبادة الشيطان ، ومن الأزل كان الصالحون يتحملون أعباء هذا القتال حتى تبقى بيوت الله عامرة بعباده «و من أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها . . ؟[3] .

من أجل ذلك قال فى تسويغ هذه الحروب « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين [4] » نعم فبقاء الحق مرهون بشجاعة رجاله وتفانيهم فى إعلاء رايته واستبقاء كلمته .

* * *

(١) التوبة : ٩، ١٠ — (٢) التوبة : ١٣

(٣) البقرة : ١١٤ — (٤) البقرة : ٢٥١

فى سورة البقرة حديث طويل عن قضايا الأسرة ، ولما كانت السورة فى أوائل المصحف الشريف ، فقد يُظن أنها أول ماقيل فى هذا الموضوع ! وهذا خطأ فإن نحو ثلثى القرآن الكريم نزل قبل هذه السورة المباركة ، وتضمّن تمهيدات لابد من استصحابها عند التأمل فى أحكام الأسرة هنا .

من ذلك المساواة الإنسانية بين نوعى الذكر والأنثى ، التى وردت فى سورة النحل « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون»[1] .

ومن الطريف أن هذا الحكم قرره مؤمن آل فرعون وهو ينصح جبابرة عصره « من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ، ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب »[2] .

وجاء فى سورة الروم عند الحديث عن آيات الله فى ملكوته « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة[3] » وأكد ذلك فى سورة النحل وهو يسرد نعم الله على عباده « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة»[4] .

إن فهم وضع المرأة ، ومكانة الأسرة سبق الحديث عنهما ، فلا غرابة فى أن تحتوى سورة البقرة تفاصيل لما قد يقع من نزاع ، أويجدّ من أحداث ينبغى تعرُّف حكم الله فيها . . ، لاغرابة إذن فى ذكر الإيلاء ، والطلاق والخلع والولادة والرضاع . . إلخ .

وشرائع الأسرة يستحيل أن تنجح بعيدا عن ضوابط الخلق والإيمان والتقوى ، وقد لفتت النظر إلى أن المسلم قد يراجع نفسه بعد الطلاق ، فلا يمضى فى طريق البتِّ وقطع الحبال ، بل يجب أن يعمل عقله ، جاء ذلك فى ثمانية توجيهات ، تلاحقت فى أثناء تقرير هذا الحكم المهم ، وقد جاءت كلها فى أعقاب قوله تعالى : « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن (١) فأمسكوهن بمعروف (٢) أوسرحوهن بمعروف (٣) ولاتمسكوهن ضرارا لتعتدوا (٤) ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه (٥) ولاتتخذوا آيات الله هزوا (٦) واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به (٧) واتقوا الله (٨) واعلموا أن الله بكل شىء عليم»[5] .

ماذا يصنع دين أكثر من ذلك فى لزوم التروِّى والأدب وصون الحاضر والمستقبل ؟ ومع ذلك فقد بلغ الهوس فى إيقاع الطلاق حد الجنون ، فقد يعلِّق رجل طلاق امرأته على شرب سيجارة ، ثم يدخن وينهدم البيت ، وتتمزق الأسرة شظايا ، ويُتهم الإسلام بالحيف على المرأة ! !

---

(١) النحل : ٩٧ (٢) غافر : ٤٠ (٣) الروم : ٢١

(٤) النحل : ٧٢ (٥) البقرة : ٢٣١